اللّبس الآتي من التّركيب:

تقدّم حديثُ عن اللَّبس الآتي مِن التّصريف، وتبيّن أنّ مضمارَه القوالب التّصريفيّةُ والأبنية، أمّا لَبس هذا المطلبِ فهو واقع في التّركيب، وليس معنى هذا أنّ اللّبس في هذا المِضمار آتٍ مِن صعوبةِ المفردات وغموضِها في سياقها، بل الأمرُ بالضّدّ، فقد يحدث أنْ يَرِد على المرء جملٌ سمحةُ القياد في ظاهرِها، ولكنّها معتاصة في دِلالتها لِما يكتنفها مِن لَبسٍ واقع في تركيبها، وليس يصحّ في الفهمِ أنْ توصَف الجملة بأنّها شريط أفقيّ متسلسِل يُقْتَنص المراد مِنه بالنّظر إليه، والاكتفاء به، فثَمّ جمل مُلْبِسة محتمِلةٌ، ومِن ذلك:

1- نصحت لأختي أن تبقى مع أمّي لأنّها مريضة.

2- مررت برفيقِ أخي محمّدٍ.

3- قابل محمّد سعيدًا ضاحكاً.

ومِن هنا تأتي ثورة "تشومسكي" على بعض مقولاتِ البنيويّة؛ ذلك أنّها تقف عاجزةً أمام جمل غامضةٍ مبهمَة، ومن أمثلته: "قَتْلُ الصّيادين"، فهي بنية سطحيّةٌ موهمِة؛ إذْ إنّ تحتها بنيتَين عميقتَين، "فهي تُمثَّل تمثيلاً مبهَمًا على المستوى التّحويليّ"، وقد كان هذا النّظر الثّاقبُ المسوِّغَ الأوّلَ لدراسة التّراكيبِ وِفاقًا للنّظريّة التّحويليّة، "فقد وجدنا أمثلةً مِن الجمل التي تُفهَم بأكثرَ من طريقة واحدة، وهذا مبرِّرٌ مستقلّ، ودافعٌ لوصف اللّغة طبقًا للبنية التّحويليّةِ، فمن أجل أنْ نفهمَ جملةً ما مِن الضروريّ أنْ نعرف جمل النّواة التي اشتُقّت مِنها هذه الجملة".

وفيما يأتي محاولةٌ لاستشراف المواضعِ التي ترشِّح لتخلّقِ اللّبس، وليس المقصِد أنْ أقفَ عند البِنى العميقةِ في كلّ جملة على التّعيين؛ فهذا مطلبٌ يطول، والحقّ أنّ البحثَ عن علّة العلّةِ يفضي إلى العَود على ما تقدّم آنفًا؛ أعني تجاوزَ البِنى السّطحيّةِ، واستشرافَ ما يقع تحتها مِن بِنًى عميقة مؤلِّفة؛ ذلك أنّ المعنى الذي لا يُلبِسُ مركوزٌ فيها:

1- مرجع الضّمير:

كثيرًا ما يعدل المتكلّم عن تَكرار الأسماءِ معوِّلاً على بديلٍ يقوم مقامَها، وهو الضّمير، والظّاهر أنّ للعدول أسبابًا خاصّة كالاختصارِ، والفَخامةِ بشأن صاحبه، والتّحقير، ثمّ إنّ الاستعانةَ بالضّمائر تعمل على تجنُّب الرّتابةِ ورداءةِ التّأليف، ولعلّ هذا يتجلّى عند العودِ إلى الأصل، وردِّ الضّمائر إلى مراجعها في سياقٍ جمْليّ، ومِن ذلك:

ذهب الأولادُ إلى مدرستهم(الأولاد)، وقد قابلهم(الأولاد) مدير المدرسة، فأمرهم (الأولاد) بالمواظبةِ على تدريبهم (الأولاد).

وقد يحدثُ أحياناً أنْ يتقدّم الضّميرَ مرجعان يتطابقان وملامحَه، ولكنّ هذا الملحظَ لا يُؤْذِن باشتباهٍ في تعيّن أحدِهما مرجعًا ضابطًا للمعنى، فلو أنّه قيل: "تركَ الطّفلُ السّرير لأنّه مكسور" لاقتنص السّامعُ مِن جملة المتكلّم أنّ المكسورَ هو السّرير لا الطّفل، والمفارقةُ اللّطيفة هنا أنّ ثَمّ تطابقًا جليًّا بين الضّميرِ والسّريرِ في العدد والجنسِ، ولكنّ الإلفَ اللّغويَّ، والعلاقاتِ السّياقيّة، والتّعويلَ على حقائقِ الحياة، ومنطق الأشياء في العالم الخارجيّ؛ كلّ ذلك يعملُ على توجيهِ العقل نحو المتعيّن، ولكنّ هذا لا ينفي أنْ يَرِد على السّامع جملٌ يكتنفها لَبس آتٍ مِن هذا المطلب؛ مطلبِ تعيين المرجعِ.

لننظرْ في الجمل الآتية:

1- نصحت لأختي أن تبقى مع أمّي لأنّها مريضة.

2- زار أبي الطبيب لأنّه مريض.

3- استأذن أخي أبي أنْ يتكلّم.

4- طلب أخي إلى أبي أنْ يتكلّم.

تقدّم آنفًا أنّ للمطابقةِ فضلاً في تعيينِ المرجع، والحقّ أنّها في الوقت نفسِه باعثُ اشتباهٍ، فإذا ما عَرض في جملةٍ ما مرجعان متّفقان في ملامحهما مع ملامحِ الضّمير فإنّ ذلك مَزْلَقةٌ للولوج في اللّبسِ في بعض الأحيانِ، ففي الجملةِ الأولى نجد أنّ تطابقًا واقعًا بين الضّميرِ والاسمين اللّذين يتقدمانه: "أختي" و"أمّي"؛ ذلك أنّ الضّمير يدلّ على التّأنيثِ والإفراد، والأمُّ والأخت لا تخرجان عن هاتَين الفصيلتَين، ولذلك يقع الخاطرُ في حَيْرةٍ واشتباهٍ باعثهما تعيين المرجعِ، أهو الأمّ أم الأخت:

- نصحت لأختي أن تبقي مع أمّي لأنّها "أمّي" مريضة.

- نصحت لأختي أن تبقي مع أمّي لأنّها "أختي" مريضة.

أمّا الجملةُ الثّانية فهي محتمِلة كسابقتها؛ ولعلّ حقائقَ الحياة التي تحدّثَ عنها Schlesinger لا تشفع للقارئِ في هذا المقامِ، وإنْ كانتْ ترجِّح عود الضّمير على "أبي"، ولكنْ، قدْ يحدث أنْ يكونَ المريض هو الطّبيبَ، وقد ذهب أبي لزيارته لتلكم العلّةِ الحادثة، ولِما بينَهما مِن لُحَم وتآصرٍ، والأمران محتمَلان غير متدافعَين، والمفارقة في هذا كلّه أنّ المطابقةَ التي هي مَعْلَم إبانةٍ غدتْ في سياقها مَعْلَمَ اشتباهٍ واحتمال.

عوْدًا على حقائقِ الحياة؛ ذلك أنّها تقرّر مرجعَ الضّمير في الجملةِ الثّالثة، فليس يصحّ فيما ران عليه إلفُنا ومُعتقَدنا أنْ يستأذن الأبُ ابنه ليتكلّم، بل الأمر بالضّدّ، ولذا يتعيّن عودُ الضّمير المستَتِر على "أخي"، والمعوّلُ عليه في هذه الإبانةِ وكشفِ اللّبس منطقُ الأشياء في العرفِ الاجتماعيِّ وحقائقِ الحياة.

أمّا الجملةُ الرّابعة فهي متردِّدة بين معنَيين، أوّلهما أنْ يعودَ الضّمير المستتر في "يتكلّم" على "أبي"، وثانيهما أنْ يعودَ على "أخي"، وكلاهما مُتقبَّل صالحٌ في ذلك السّياق، ويظهر أنّ حقائقَ الحياة في هذه الجملة لم تشفعْ؛ ذلك أنّ الطّلبَ قدْ يقع مِن الاثنين.

وقدْ يكون موضع اللّبس "مرجعُ الضمير" إمكانةً مِن إمكانات الإلباسِ لمن أراد تعميةً وتغطية لأغراضٍ في النّفسِ شتّى، ومِن ذلك قولُ خالد بن عبد الله القَسْريّ على المنبر: "إنّ أميرَ المؤمنين كَتب إليّ أنْ ألعن عليًّا، فالعنوه، لعنه الله"، فأوهم أنّ الضّميرَ في قوله: "فالعنوه، لعنه الله" عائدٌ على عليٍّ رضي الله عنه، وإنّما الأمر بالضّدّ، فهو عائدٌ على الآمرِ له بلعنته، فأُنْكرِت عليه هذه الفِعلة.

ومِن مثل ما تقدّم القولُ المنسوب إلى عليّ -رضي الله عنه-: **"أيّها النّاس، تزعمون أنّي قتلت عثمانَ؟ ألا وإنّ الله قتله وأنا معه"**، وقدْ أراد عليّ أنّ الله قتله، وسيقتلني معه، وجعلَ الهاء في "معه" عائدةً على عثمانَ رضي الله عنه، ولعلّ المطابقة في شقّها الثّاني –وهو الإلباسُ– هي التي أفضت ببعضِ المسلمين إلى جعلِ الضّمير في قوله "معه" عائدًا على الله، فأوجبوا عليه مِن هذا اللّفظ أنّه شارك في قتلِ عثمانَ رضي الله عنهما.

ومِن مِثل ما تقدّم قولُ الحقِّ –تقدّس اسمه-: **"وَما أصابَ مِنْ مُصيبةٍ في الأَرْضِ وَلا في أنفُسِكُم إلاّ في كِتابٍ مِن قَبلِ أنْ نَبْرَأَها"**، فَموضعُ النّظرِ قوله –تبارك-: "نبرأها"؛ ذلك أنّ قواعدَ المطابقة تبيح عودَ هذا الضّمير "الهاء" على ثلاثةِ مراجعَ متقدّمة:

- أوّلها أنّها تعودُ على النّفْس: مِن قبل أنْ نبرأ النّفْس.
- وثانيها أنّها تعود على الأرضِ: مِن قبل أنْ نبرأ الأرض.
- وثالثها أنّها تعود على المصيبة: مِن قبل أنْ نبرأ المصيبة.

2. الإضافة:

والإضافةُ مِن المواضع المرشِّحة لتخلّقِ اللّبس والاحتمالِ، والمتعيّن مِنها أنْ يضاف المصدر إلى الاسم؛ وذلك نحو "ضَرْب النّاسِ"، والظّاهر مِن هذا التّركيب السّطحيّ أنّ المضاف إليه "النّاس" متردّد بين معنيين: الفاعليّة والمفعوليّة، ولكنْ، قد يتعيَّن المراد باستشراف مجموعةٍ مِن العواملِ متضافرة؛ وذلك نحو منطقِ الأشياءِ في العالم الخارجيّ، ووشايةِ السّياق البنيويّ، والمقاميّاتِ، وفي الأمثلة الآتيةِ فضلُ بيان:

1- أكلُ الخبزِ.
2- أعجبني ضربُ زيدٍ عَمرًا.
3- أعجبني ضربُ زيدٍ عمرٌو.

إذا ما عُرضتْ الأمثلةُ المتقدّم ذكرُها على سلّم درجاتِ الإبانة فإنّها تظهر جليّةً لا شبهةَ عليها، فمنطقُ الأشياء في العالمِ الخارجيّ يقتضي أنْ يكون الخبزُ مأكولاً لا آكلاً، وبذا

يتعيّن مِن هذا التّركيبِ معنى فردٌ، وهو معنى المفعوليّة، أمّا الجملةُ الثّانية والثّالثة فالعلامةُ الإعرابيّةُ، وتكامل السّياق البِنيويّ، يعملان معًا في تناغمٍ لتعيين معنى هذا التّركيبِ الذي قد يُلْبس، ففي انتصاب "عَمرًا" وشايةُ مِن السّياق البنيويّ بأنّ "زيدٍ" فاعلٌ في المعنى، فهو الضّارب عَمرًا، والأمر بالضّدّ في الجملةِ الثّالثة؛ إذ إنّ ارتفاع "عمروٌ" ذو دلالةٍ على أنّ "زيدٍ" مفعول به في المعنى. أمّا التّركيبُ الإضافيّ في الآية الكريمةِ فليس يحتمِل إلاّ وجهًا واحدًا؛ ذلك أنّ المُعتقَد الدّينيّ، والعرفَ، والسّياق البنيويّ، كلّ ذلك يقتضي هذا المعنى.

ولكنْ، قدْ يحدث أنْ يقع لَبس باعثُه هذا التّركيبُ المُوهِم المكثّف، ومِن ذلك:

1- سريّ يرغب في مساعدةِ الأساتذة.
2- ويكره إزعاجَ الطلاّب.
3- ويحبّ زيارة الأصدقاء.
4- نقد تشومسكي نقد مبرَّر.

3. خفاءُ العلامةِ الإعرابيّة:

تبيّن في درسِ الإبانة أنّ العلامةَ الإعرابيّة دليلٌ هادٍ إلى المعاني النّحويّةِ العريضة؛ كالفاعليّةِ، والمفعوليّة، والإضافة، ولكنْ، قد يحدثُ أنْ يتعذّر ظهورُ العلامة الإعرابيّةِ تعذّرًا يُفضي إلى التباسٍ في المعنى النّحويّ الذي تؤدّيه الكلمةُ، وليس المَقْصِد مِن هذا التّقرير أنّ كلّ خفاءٍ للعلامة يُفرِز اللَّبس والاحتمال؛ ذلك أنّنا نَرِد على كثيرٍ مِن الجمل التي لا تظهرُ فيها العلامة، فنقتنص المتعيّن مِنها مسترفدين قرائنَ سياقيّةً وأنظارًا خارجيّة، وأمثلةُ هذا المَلحَظ كثيرةٌ كثرةً تغني عن الوقوفِ عندها.

أمّا مبحث العلّة؛ علّةِ خفاء العلامة، فالقولُ فيه طويل، ومِن ذلك المبنيّاتُ التي يمكن أنْ تُوسَم بأنّها "هكذا خُلقت"، كسيبويهِ الذي يلتزم حركةً واحدةً في حالاته الثّلاث، و"مَن"، و"الذي"، و"التي" وغير ذلك، والأسماءُ المقصورة ممّا يتعذّر فيه ظهورُ العلامة الإعرابيّة؛ وذلك نحو "عيسى"، و"موسى"، والأفعالُ المنتهية بالألف، ومِنها "يخشى"، و"يسعى"، وقدْ يكون للعوارضِ التّصريفيّة النّحويّة يدٌ في خفاء العلامةِ؛ كإضافة الاسمِ إلى ياء المتكلّمِ، فيلتزم حالاً واحدةً لا تظهر فيها علامةُ الإعراب، فيغدو كعيسى وموسى، ومِن ذلك "أخي"، و"دفتري"، و"محاميّ"، والملاحظُ أنّ مثلَ هذه الأسماءِ معرَبةٌ تظهر عليها الحركةُ قبلَ هذا الحادث، ولكنّ اتّصالَها "بالياء" يُبْطل قبولَ ظهور العلاماتِ الإعرابيّة عليها. وإعرابُ الجمل والمصدرِ المؤوّل ممّا يتعذّر فيه ظهور العلامة، وفي الأمثلةِ الآتية بيانُ ما تقدّم:

1- كان محمّدٌ صديقُ زيدٍ له بيتٌ كبير.
2- كان محمّدٌ صديقَ زيد له بيت كبير.
3-كان محمّدٌ صديقي له بيت كبير.

يظهر مِن الجملةِ الأولى أنّ المتكلّم يشير إلى أنّ محمّدًا له بيتٌ كبير، وفي ثِنْي هذا الإخبارِ يوضّح للسّامع مَن محمّد، فيذكر أنّه صديق زيدٍ، فيكون إعراب "صديق" عطفَ بيان. أمّا الجملةُ الثّانية فهي مؤتلفة مِن خبرين لـ"كان"، أوّلهما "صديق زيد"، وثانيهما الجملةُ الاسميّة "له بيت كبير". والظّاهرُ مِن هاتَين الجملتَين أنّ المعنى الدّقيق لا يظهر إلاّ بالعلامةِ الإعرابيّةِ الفارقة بين المعاني النّحويّة، وعند خفاءِ هذه العلامةِ، وتعذّر ظهورِها على الاسمِ المضاف إلى ياء المتكلّم، فإنّ المعنيَين المتقدِّمين في الجملتَين محتمَلان في الجملة الثّالثة، فقدْ يكون مقصِد المتكلِّم الإخبارَ بأنّ محمّدًا كان صديقَه، وقد يكونُ الوصف.

ومِن مِثل ما تقدّم قوله –تعالى-: **"إنَّ هذا أخي لَه تِسعٌ وَتسعونَ نَعجَةً"**، فباستبدالِ كلمةٍ مكان "أخي" في سياقٍ مصنوع يتجلّى الفرقُ المعنويّ الذي يشتبه باختفاءِ العلامة:

- إنّ أخي وليدًا سائقٌ ماهر.
- إنّ أخي وليدٌ سائق ماهر.

لننظرْ في الأمثلةِ الآتية:

1. **رأيت رفيقَ أخي محمّدٍ.**
2. **رأيت رفيقَ أخي محمّدًا .**
3. **رأيت رفيقَ أخي مصطفى.**
4. **رأيت دفترَ الطّالبِ الأعمى.**
5. **رأيت أخا الطّالبِ الأعمى.**

يظهر في الجملةِ الأولى والثّانية بجلاءٍ فضلُ العلامةِ الإعرابيّة في تعيّن المعنى النّحويِّ الذي تمثّله كلمةُ "محمّد"، فمجيئُها مجرورةً في الجملةِ الأولى معناه أنّها تابعة لكلمة "أخي"، وبذا يتعيّن معنى تضمينيّ مِن هذا التّركيب مفادُه أنّ للمتكلّم أخًا اسمه "محمّد"، وليس ذلك كذلك في الجملةِ التي تعقبُها؛ ذلك أنّ مجيء كلمةِ "محمّد" منصوبةً يُؤْذِن بالقول إنّها تابعة لكلمةِ "رفيق"، فيتعيّن مِن هذا معنى تضمينيّ مفارقٌ للأوّل مفادُه أنّ اسمَ رفيقِ أخي هو "محمّد". والفضلُ كلّه للعلامة الهاديةِ إلى المعنى. أمّا الجملةُ الثّالثة -وفيها يكمن اللّبس والاحتمالُ- فهي متردِّدة بين المعنيين المتقدّمَين، وعلّة هذا اللّبسِ تعذّر ظهورِ العلامة الفارقةِ في هذا السّياق التّركيبيّ: "رأيت رفيقَ أخي مصطفى".

أمّا الجملةُ الرّابعة فهي -وإنْ خَفِيت العلامةُ الإعرابيّة لتعذّر ظهورِها على آخر الأعمى- متجافيةٌ عن اللَّبْس والاحتمالِ؛ ذلك أنّ منطق الأشياءِ في العالمِ الخارجيّ يقرّر أنْ تتعلّق "الأعمى" بالطّالبِ لا الدّفتر؛ ذلك أنّه لا يكونُ إلاّ لذي روحٍ، ولعلّ هذا التّعبيرَ المفارق لنواميسِ الكون(الدفتر الأعمى) يغدو متقبَّلاً في سياقٍ إبداعيّ. أمّا الجملةُ الخامسة فهي مُلبِسة محتمِلةٌ، وليس للسّياق البنيويّ، ولا لحقائقِ الحياةِ، ومنطقِ الأشياء وشاية. ها نحن

أولاءِ نعودُ ثانيةً إلى خفاء العلامةِ المؤْذِنِ بالولوج في تيهِ التعدّد واللّبس؛ فالأعمى قد يكونُ الطّالبَ، وقد يكون أخاه:

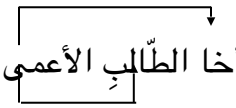

1. **أتتك به سعادُ.**
2. **أتتك به فَرَحًا.**
3. **أتتك به بُشْرى.**

موضعُ النّظر في هذه الأمثلةِ المصنوعة "بُشرى"، وهنا يظهر التّداخلُ بين المستوَيَين: الصّرفيِّ والنّحويِّ، فكلمة "بُشرى" مشتركة بين المصدريّةِ والاسميّة، وهذا لَبسٌ آتٍ مِن الصّرف، وينبَني على هذا الاشتباهِ الصّرفيّ اشتباهٌ نحويّ، فقد تكون في سياقِها ذاك فاعلاً لأنّها اسم، وقد تكونُ مفعولاً له منصوبًا؛ ذلك أنّها مصدرٌ. والحقّ أنّ هذا اللّبسَ المتردّدَ بين المستويَين: الصّرفيِّ والنّحويِّ في الجملةِ الثّالثةِ لا يُرفَع إلاّ بظهورِ العلامةِ الإعرابيّة المميِّزةِ للمعنيين النّحويّين: الفاعليّةِ كما في الجملة الأولى، والمفعوليّةِ الغائيّة كما في الجملةِ الثّانيةِ.

- هذه أختُ سعادَ النّاجحة.

- هذه أختُ سعادَ النّاجحةُ.

- هذه أختُ سعادَ الصّغرى.

لعلّ ما تقدّم مِن بيانٍ يغني عن تجليةِ اللّبس الواقعِ في الجملة الثّالثة.

4- التّعلّق:

قدْ يحدث أنْ تتداخلَ العلاقات السّياقيّةُ التّركيبيّة لتُفضيَ إلى اشتباهٍ في ربط بعضِ الكلماتِ بما تعود إليه، ولهذا الاشتباهِ مواضعُ معيّنةٌ، ومِن ذلك اشتباهٌ في تعلّق الاسم الموصولِ في حالاتٍ مخصوصة، والصّفة، وصاحب الحال، وتعيين المستثنى مِنه، ولعلّ في الأمثلةِ الآتية بيانًا تطبيقيًّا يجلّي هذا الوصفَ النّظريّ:

1. **1- جاء غلاما الفريقَين اللذَين خسرا المباراة.**
2. **2- جاء غلاما الفريقَين اللذان فازا.**
3. **3- رأيت غلامي الفريقَين اللذَين فازا.**

يظهرُ من الجملةِ الأولى أنّ للعلامةِ الإعرابيّة فضلاً في الإبانةِ عن المعنى؛ ذلك أنّها تهدي القارئ إلى أنّ "اللذَين" تتعلّق بالفريقَين لتوافقِهما في الحالةِ الإعرابيّة. والجملةُ الثّانية كسابقتِها، فمجيء "اللذان" مرفوعةً مَعْلَم إبانة عن رجوعِها إلى الاسم المرفوع وهو "غلاما". أمّا الجملةُ الثّالثة –وهي موضع التّمثيل– فهي محتمِلةُ المعنيَين؛ ذلك أنّ "اللذَين" تحتمل عَودًا

على "الفريقَين" و"الغلامَين"، ويظهرُ هنا تعطُّلُ القولِ بفضل العلامةِ الإعرابيّةِ؛ ذلك أنّها في "اللذَين" تحتملُ معنيَين: معنى النّصبِ، ومعنى الجرّ، ولو أنّ نواميسَ اللّغة اجترحتْ لها حركاتٍ متمايزةً في الحالات الثّلاث لَما وقع هذا اللَّبس في هذا الموضعِ، ولكنّ الالتقاء على علامةٍ واحدة في حالتَين متباينتَين يُفضي في مواضعَ إلى مزالقِ اللَّبس، وذلكَ نحو:

"مررت بأمّهات الطّالبات اللواتي ذهبن إلى الرّحلة"

يظهرُ ثانيةً اشتباهُ في تعيين مرجعِ الاسم الموصولِ، وهذا شبيهٌ باللّبس الآتي مِن الاشتباهِ في تعيينِ مرجعِ الضّمير؛ ذلك أنّ المطابقةَ تفعل في تشكيلِ هذا اللَّبسِ، فتقدُّم مرجعَين متطابقَين متضايفَين يستدعي اسمًا موصولاً متردّدًا في عودِه عليهما:

مررتُ بأمّهات الطّالبات اللواتي ذهبن إلى الرّحلةِ

ومن أمثلةِ اللّبس الآتي مِن "التّعلّق":

1. **1- اشتريت قلمَ حبرٍ سائلٍ.**
2. **2- اشتريت قلمَ حبرٍ طويلاً.**
3. **3- اشتريت قلمَ حبرٍ أسودَ.**

يظهر مِن الجملة الأولى والثّانيةِ أنّ للعلامة فضلاً في ردّ الصّفة إلى موصوفِها، فكلمة "سائل" المجرورةُ تعود على "حبر" المجرور، وهذه مطابَقةٌ إعرابيّة. أمّا في الجملةِ الثّانية فهي تقضي بعودِ "طويلاً" على "قلمَ" وفاءً بقواعدِ المطابقة.

أمّا الجملةُ الثّالثة فهي مُلبِسة مشتبِهة؛ ذلك أنّ لغيابِ العلامةِ الجزئيّ يدًا في ذلك، وهذا يُؤْذنُ باشتباهٍ في مرجعِ الصّفة "أسود"، أهو الحبرُ أم القلم، وكلاهما صالحٌ، ويظهرُ أنّ التقاء علامتَين إعرابيّتَين في علامةٍ واحدة هو الباعثُ على ذلك؛ ذلك أنّ "أسودَ" –وهي ممنوعةٌ مِن الصّرف– تتردّد بين النّصبِ والجرّ، وقواعدُ إعراب الكلمِ تقتضي أنْ يلتقيَ على الاسم الممنوعِ مِن الصّرف علامةٌ واحدة في حالتَين متباينتَين(النّصب والجرّ)، والذي يزيد مِن تجلّي اللّبس في هذا السّياقِ هو تقدّم مرجعَين متطابقَين في الجنسِ والعددِ، والصّفةُ تطابقُهما في هاتَين الفصيلتَين، ويبقى لغيابِ العلامة الجزئيّ الفعلُ في تخلّقِ لَبسِ التعلّق:

اشتريتُ قلمَ حبرٍ أسود

لِنَرْجع النّظر فيما يأتي لبيانِ اشتباهٍ في مرجعِ البدلِ، وتعطُّل القول بفضلِ العلامةِ في حالاتٍ محدّدة:

- **هذا صديقُ أخي إبراهيمُ.**
- **هذا صديقُ أخي إبراهيمَ.**

الجملة الأولى مُبِينةٌ لا لَبسَ فيها، فرفعُ إبراهيم يقتضي كونَها بدلاً مِن "صديق". والجملةُ الثّانية –وهي مُبِينة كسابقتِها- تقتضي أنْ يكون "إبراهيم" بدلاً مِن "أخي". أمّا الجملةُ الثّالثة فقد اشتملتْ على المعنيين كليهما، وقد حدث اشتباهٌ في تعيينِ مرجع البدل "إبراهيم"؛ أهو أخي أم صديقي، ولا يخفى أنّ لغيابِ العلامة الأصليّةِ يدًا في ذلك، فالفتحةُ على "إبراهيمَ" علامةُ نصب، وإذا كان ذلك كذلك، تعيّن أنْ يكونَ مرجعُ "إبراهيم" هو الصّديق، وهي في الآنَ نفسِه علامة جرّ، وإذا كان ذلك تعيّن أنْ يكونَ المرجعُ أخي. والجملةُ الرّابعة ملبسةٌ كما الثّالثة؛ كلّ ذلك باعثُه تعطُّل القولِ بفضل العلامةِ الإعرابيّةِ المؤدّي إلى اشتباهٍ في تعلّق الكلمةِ بمرجعِها.

1. **زرت مساجدَ القدسِ العتيقةَ.**
2. **زرت مساجدَ القدسِ العتيقةِ.**
3. **أصلي الجمعة في مساجدِ القدسِ العتيقةِ.**

عودًا جديدًا على اشتباهِ تعيين المرجع؛ مرجعِ الصّفة، فالظّاهر مِن الجملةِ الأولى أنّ القائلَ زار المساجد العتيقةَ في القدس، وأنّه زار المَساجدَ في القدس العتيقةِ في الجملة الثّانية، أمّا الجملة الثّالثة فالمعنيان المتقدِّمان محتمَلان، ويظهر فيها أنّه تقدّم الصّفةَ "العتيقةِ" مرجعان يتنازعان عليها، وممّا يزيد الطّين بِلّة أنّ كلا المرجعَين متماثلٌ في العلامةِ الإعرابيّة.

وممّا ينضافُ إلى مباحثةِ اللّبس الآتي مِن توهّم "التّعلّق" صاحبُ الحال؛ إذْ إنّ الخاطر قدْ يتردّد بين شيئين في تعيينِ مرجع الحالِ، وفي الأمثلةِ الآتية فضلُ بيانٍ:

1. **جاء سريٌّ ضاحكًا.**
2. **قابل سريٌّ بثينةَ ضاحكةً.**
3. **قابل سريٌّ بثينةَ ضاحكًا.**
4. **قابل سريٌّ أباه ضاحكًا.**
5. **قابل الآباء أبناءهم وهم مسرورون.**
6. **مررت بصالح جالسًا.**

يظهرُ في الجملة الأولى مرجعٌ واحد، وحالٌ واحدة متعلّقة به، دالّةٌ على هيئتِه. أمّا في الجملة الثّانيةِ فثمّ اسمان تقدّما الحال، ولكنّ قواعدَ المطابقة –أعنى فصيلةَ الجنس في هذا المثالِ– تشفع للمعنى فتتعيّن الإبانةُ، وتتعلّق "ضاحكةً" ببثينةَ، والجملة الثّالثة كذلك. أمّا الرّابعةُ فهي محتمِلة لا تنفع فيها شفاعةُ المطابقة؛ بل هي مصدرُ اللّبس، فالحالُ تقدّمها مرجعان متماثلان في الجنسِ، والحالُ تماثلهما في هذه الجهةِ، فاقتضى هذا التّماثلُ أنْ يتردّد الخاطرُ في تعلّق الحالِ بصاحبِها بين مرجعَين:

قابل سريٌّ أباه، أبوه ضاحك.

والجملةُ الخامسة كسابقتِها. أمّا السّادسةُ فحقائق الحياةِ، ومنطقُ الأشياءِ في العالمِ الخارجيّ، يرجّحان كونَ الحال مِن "صالح"؛ إلاّ أنْ يكونَ القائل محمولاً. والمقصِد مِن هذا المثالِ الأخيرِ فضلُ تحوّطٍ؛ فليس يعني أنّ الحالَ إذا تقدّمها مرجعان متماثلان في الجنسِ والعددِ، فإنّها تكون ملبِسةً باطّراد، فثمّ مقاميّاتٌ تعمل على درءِ اللّبس، وثمّ منطقٌ للأشياء يؤثّر في إدراكِنا لهذه المادّة اللّغويّةِ التي لا تسيحُ في هواءٍ طلق.

ومِن اللّبس الآتي مِن مَلحَظ "التّعلّق" اشتباهُ تعيين المستثنى مِنه؛ وذلك نحو: "علمت بنجاح الطلاّب، وعودة الأساتذة إلاّ بعضَهم". وهنا يستوقف السامعَ سؤالُ: هل يعود المستثنى "بعضَهم" على الكلّ: أي على الطلاّبِ والأساتذةِ، أم يعود على الأساتذةِ فقط؟ هذه مسألة عسيرةٌ، ومستصفَى المساءلة فيها: إذا ورد الاستثناءُ بعد جملٍ عُطِف بعضُها على بعض فهل يعود للكلّ؟ يظهر في هذا النّظرِ المُشْكِل مذاهبُ متباينة، ومِن ذلك أنّ الاستثناءَ يتعلّق بالكلّ، وعليه ابنُ مالكٍ إلاّ أنْ يقوم دليلُ على إرادةِ "البعض"، أو أنّه يتعلّق بالكلّ إنْ سيق الكلّ لغرضٍ واحدٍ، فقولنا: أكرِمِ العلماءَ، واحبسْ ديارَك على أقاربِك، وأعتقْ عبيدَك إلاّ الفسقة مِنهم" الاستثناءُ فيه للأخيرة فقط. أو أنّه إذا اتّحد العامل فللكلّ، وإذا اختلف فللأخيرةِ خاصّة؛ إذ لا يمكن عملُ العوامل المختلفة في مستثنًى واحدٍ، ومع هذا يبقى هذا الموضعُ المخصوص مَدْخلاً مِن مداخل اللّبس التي يجبُ التّنبيه عليها.

ومِن أمثلةِ هذا المطلبِ:

- قام الشّيخ اللّيلَ نصفَه إلاّ قليلاً.

- غلب مئة مؤمنٍ مئةَ كافر إلاّ اثنين.

يظهرُ في الجملةِ الأولى أنّ "قليلاً" صالح لكونِه مستثنًى مِن "اللّيل" أو مِن "نصفه"، والمعنى: قام اللّيلَ إلاّ قليلاً، أو: قام نصفَ اللّيل إلاّ قليلاً. والجملةُ الثّانية مُشْكِلة أيضًا؛ ذلك أنّ اثنَين قد تقدّمها مرجعان، فقد تتعلّق بمئةِ مؤمن، وبهذا يكونُ عدد الغالبين مِنهم ثمانيةً وتسعين، وقد تتعلّق بمئةِ كافر، فيكون عددُ المغلوبين مِن الكافرين ثمانيةً وتسعين.

ومِن الأمثلةِ المُبينة عن أثرِ هذا الموضعِ في تخلّقِ الاحتمال وتعدّد المعاني قولُه -تنزّه-: **"وَإِذا جاءَهُم أمْرٌ مِنَ الأمْنِ أوِ الخَوفِ أذاعوا بِهِ، وَلَو رَدّوه إلى الرَّسول وَإِلى أولي الأمرِ مِنْهم لَعلِمَه الذين يَستنبطونَهُ مِنْهمْ، وَلَولا فَضلُ اللهِ عَليكمْ وَرَحمتُهُ لاتَّبعتُمُ الشّيْطانَ إلاّ قَليلاً".**

وقد اختُلِف في تعيين تعلّق المستثنى، فقيل:

1. إنّه استثناءٌ مِن قولِه –تعالى-: "لاتّبعتم الشّيطان إلاّ قليلاً".
2. إنّه استثناءٌ مِن الضّمير "الواو" في يستنبطونه، والمعنى: لعلمه الذي يستنبطونه إلاّ قليلاً.
3. إنّه استثناءٌ مِن الضّمير في قولِه –تعالى-: "أذاعوا به".

4. إنّه استثناءٌ مِن الضّمير "الهاء" في قوله: "أذاعوا به".
5. إنّه استثناءٌ مِن الضّمير في قوله: "جاءهم".
6. إنّه استثناءٌ مِن الضّمير في قوله: "عليكم".

5-مرونةُ الجملةِ العربيّة:

ومِن المواضع التي تتضافرُ مع ملحظ "التّعلّق" اللّبسُ الآتي مِن مرونةِ الجملة العربيّةِ؛ ذلك أنّ تغيير مواقع الكلم الأصليّة يعمل -في مواضعَ- على اشتباهٍ في العلاقات السّياقيّة البنيويّة، فقد يطولُ الفصل بين العاملِ والمعمولِ، فيُؤْذِن هذا بتداخلِ العلاقات البنيويّة، ليعقبَه وهم واحتمالٌ، وقد يُحدِث تعدّدُ العوامل في السّياقِ الواحد اشتباهًا في تعيين المعمولِ الذي يتعلّق بعاملِه، لننظرْ في الجملِ الآتية:

1. **علمت قبل سفري أنّهم اشترَوا السّيارة.**
2. **علمت أنّهم اشترَوا السّيارة قبل سفري.**
3. **قرّرت يوم الاثنين أنْ أسافر إلى عكّا.**
4. **قرّرت أن أسافر إلى عكّا يوم الاثنين.**
5. **علمت بمجيء سريّ اليومَ.**

يظهرُ مِن الجملة الأولى أنّ الظّرف متعلِّق بالفعل "علمتُ"، والمتقرِّر مِن الجملة أنّ القارئَ عَلِم قبل سفرِه بأنّهم اشتروا السّيارة. ولكنّ الجملةَ الثّانيةَ محتمِلة؛ ذلك أنّ "قبل سفري" تحتمِل أنْ تتعلّق بعاملَين متباينَين، فقدْ يكون المعنى أنّ القائلَ يقرّرُ أنّه عَلِم قبلَ سفرِه بأنّهم اشتروا السّيارة، وقدْ يكون المعنى أنّهم اشترَوا السّيارة قبل سفرِه؛ كلّ ذلك مردّه إلى مرونةِ الجملةِ العربيّة المفضيةِ إلى اشتباهٍ في التّعلّق.

علمتُ قبل سفري

اشترَوا قبلَ سفري

أمّا الجملةُ الثّالثة فهي واضحة، والظّرف "يومَ الاثنين" مركوزٌ في موضعٍ دالٍّ على تعلّقه بالفعل "قرّرت"، ولمّا نُقِل مِن موضعِه –في الجملة الرّابعة- وقد تقدّمه عاملانِ يتجاذبانِه، تُوُهِّم في تعلّقِه، فصار لدى الخاطرِ معنيان: أنّ ظرف القرارِ كان يوم الاثنين، أو أنّ ظرفَ السّفر كان يومَ الاثنين:

قرّرت أن أسافرَ إلى عكّا يومَ الاثنين

والجملةُ الخامسة ملبِسةٌ كسابقتِها، فقد يتعيّن مِنها أنّ مجيء سريّ كان اليوم، أو أنّ عِلمَ السّامعِ كان "اليوم"، وثَمّ بونٌ بين المعنَيين عريض؛ ذلك أنّ المتكلّم قد يقولُ الجملة، وقدْ

مضى على مجيءِ سريٍّ يومان، أو أسبوع، أو شهر، ولكنّه لم يعلم إلاّ اليومَ. وقد يكونُ المتعيِّن أنّ المتكلِّمَ قالها بعدَ أنْ عَيّن يومَ المجيء، فيكون زمنُ المجيء وزمنُ العلمِ واحدًا:

علمتُ بمجيءِ سريٍّ اليومَ

6-الحذفُ:

الحذفُ أو "الاقتصاد في الكلام" ظاهرةٌ شائعة في الأحداثِ الكلاميّة، وقد تبيّن أنّ لدِلالةِ السّياق فضلاً جَليلاً في الكشفِ عن المحذوف، والظّاهر أنّ هذه الظّاهرةَ تتجلّى بوضوحٍ في الأحداثِ الكلاميّة المنطوقة أكثرَ مِن المكتوبة، وقدْ عرّج اللّغويّون القدماءُ على مَطْلَب هذه المباحثةِ، فقدْ قرّر المبرِّد قاعدةً عريضة أساسُها التّواصل، وهي: "فكلُّ ما كان معلومًا في القولِ جاريًا عند النّاس فحذفُه جائزٌ لعلم المخاطَب"، وقد وضع ابنُ هشامٍ ثمانية شروطٍ للحذف، وهي في مُجْمَلها ودلالتِها الكلّيّة تدور في فلكِ التّواصل والإفهامِ، ومِنها وجودُ دليل حاليّ، ومِن ذلك قولُهم لمن رفع سوطًا: "زيدًا" بإضمارِ "اضربْ"، وألاّ يكونَ ما يُحْذَف كالجزءِ، وألاّ يؤدّي حذفُه إلى اختصارِ المختصَر.

وقد عرّج ابنُ يعيشَ على هذه الظّاهرةِ معوِّلا على دلالةِ السّياق البنيويِّ والحاليّ، ومِن ذلك إلماحتُه إلى حذفِ المبتدأ أو الخبرِ مع أنّهما متلازمان، "فلا بدّ مِنهما، إلاّ أنّه قد تُوجَد قرينةٌ لفظيّة أو حاليّة تُغْني عن النّطقِ بأحدهما، فيُحْذَف لدِلالتِها عليه، لأنّ الألفاظَ إنّما جيء بها للدِّلالة على المعنى، فإذا فُهِم المعنى بدون اللّفظ جاز ألاّ تأتيَ به، ويكون مُرادًا حكمًا وتقديرًا".

ولكنْ، قدْ يعرضُ أنْ يَرِد على أهل اللّغةِ لَبْس آتٍ مِن قِبَل هذا المطلبِ، وهو مطلبُ إبانة وإفهام، وإخالُه يقع على المستويَين المنطوقِ والمكتوب، ومِن ذلك أنْ يغدوَ الحدث الكلاميُّ المكتوبُ بعد انسلاخِه مِن سياقِه الحيّ مُلبِسًا محتمِلاً للعلّة هذه، ولا يخفى أنّ هذا الحدثَ المكتوب فَقَدَ بعض عناصرِ الإبانة، وأدلّة المقاميّاتِ، وقد يحدث أحيانًا ألاّ تشفع المقاميّاتُ ودلالة الحالِ في هذه الجهة، فيقع اللّبس في الأحداثِ الكلاميّةِ الحيّة، ولذا يجدُ المرء في كثيرٍ مِن الحالات أنّ الحدثَ الكلاميّ الذي يشترك فيه يَعوزُه بسطٌ للقول وتطويلٌ، فيعقِّب على القائلِ إنْ لم يستوقفْه بـ "أفصح"، أو: "ماذا تعني؟"، أو: "لم أفهم"، أو: "من الذي جاء؟".

أمثلةٌ مُجلّيةٌ:

1- وممّا ورد عليّ في هذا المِضمار أنّ زميلاً طَلَب إلى آخرَ أنْ يعرض على طلاّبه أوراق استبانةٍ لكي يقيّدوا ملاحظهم عليها، ولمّا عاد الزّميل الآخر ساءله الأوّل قائلاً: أعطيتَهم؟ فقال الثّاني: نعم، فقال الأوّل مستدركًا على سؤاله بسؤالٍ: وأين الأوراق؟ فقال الثّاني وقد عقّب باعتذار: خلتُك تسأل: أعطيتَهم محاضرة؟ والذي يظهر مِن هذه الحادثة شيئان:

- أوّلهما أنّ الاجتزاء من السّياق البِنيويّ "أعطيتَهم" الباعث الأوّل على تخلّق اللّبس.
- وثانيهما أنّ سياق الحال لم يشفع، ولم يقم مَقام ذلك المحذوف الذي اطّرحه القطبُ الأوّل اقتصاداً وتعويلاً على سماحة الأحوال ودِلالاتها.

2- ومِن مثلِ ما تقدّم أنّ اثنَين كانا يتجاذبان حَدَثًا كلاميًّا، وقدْ شكا أحدُهما المعيشة الضّنك التي تثقلُه، فقال: **المال هو المشكلة الكبيرة!** فقال الثّاني مستنكِرًا عليه قولَه: المال هو الذي ييسِّر لك مطالب الحياة، فقال الأوّل: لم أعنِ ما قفز إلى خاطرِك الأوّل، وإنّما قصدت فَقْدَ المال وقلّتَه، فتقبّل منه الأوّل ما قصد بقبولٍ حسن؛ إذ إنّ كلامه بالمعنى الجديد المتجافي عن الحذفِ والاجتزاء من السّياق البنيويّ وافقَ هوى نفسه.

3- ومِن مثل ما تقدّم: **نحن رجالَ العلم أمّة ترفض الهوان.**

ممّا أصله النّداءُ الاختصاصُ، ولكنّ الأخير يفارق المنادى في أحكام، ومن ذلك أنّه ليس معه حرف نداء لا لفظًا ولا تقديرًا، وأنّه –أعني المخصوص- لا يأتي أوّلَ الكلام، بل في أثنائه، وأنّه يقلّ أنْ يكون عَلَمًا، وقدْ يحدث تداخل بين هذَين المعنيَين؛ النّداءِ والاختصاص، وإخال أنّ علّة هذا الحذفُ لا التّنغيمُ؛ ذلكم أنّ الاسم المنصوب على الاختصاصِ يجب حذف عاملِه، والمنادى يجوز حذف حرف ندائِه، ومِن هنا يحدث الاشتباه، ولعلّ الجملة المصنوعة: "نحن رجالَ العلم" متردِّدة بين المعنيين، فقدْ يكون المقصِدُ نداءَ رجال العلمِ في حضرةٍ ما كاجتماع، وقد يكون المَقصِد أنّه يخصّ رجال العلم، وهو واحد منهم، وليس ينفع التّنغيم في هذا السّياق؛ ذلك أنّ ثمّ تشابهًا بين تنغيمِ الاختصاص وتنغيم النّداء في هذا الموضع على وجه التّعيين.

وممّا ينضاف إلى اللّبس الآتي من الحذف بعضُ الأمثلة من التّفضيل والمقارنة؛ وذلك نحو:

- **هي تحبّه أكثر منك.**
- **محمد يحبّ زيدًا أكثر من عَمرٍو.**
- **سعيد يلاطف أباه أكثر من أمّه.**

يَصْدُق على هذه الجمل بأنّها تأتلف مِن مبنًى مُكثَّفٍ ومعنًى مُغلَّف؛ ذلك أنّ فيها حذفًا وتكثيفًا يُفضيان إلى صيرورتِها محتمِلةً، فالجملة الأولى قد تعني أنّها تحبّ فلانًا أكثر من حبّك له، أو أكثر مِن حبّها لك، ومحمّد يحبّ زيدًا حبًّا يفوق حبّ عَمرٍو لزيد، أو حبّ محمّد لعمرو، والجملة الثّالثة كسابقتها.

7- حروف المعاني وتعدّد معانيها:

هذا موضعٌ آخرُ من المواضعِ المرشّحة لوقوع اللّبس، وليس المَقصِد من هذا العنوان العريضِ أنْ يكون باب "التّناوب" مفتوحًا باطّرادٍ؛ إذ إنّه يُفضي إلى تداخلٍ في المعاني،

ومن ذلك "ما"، فقد تكون اسمًا، وقد تكون حرفًا، وإذا كانت اسمًا فإنّ لها مواضعَ، ومِن ذلك أنْ تكون استفهامًا، وشرطًا، وتعجّبًا، وخبريّة، ونكرةً موصوفة، وإذا كانت حرفًا كان لها مواضع، ومِن ذلك أنْ تكون نافيةً، وزائدة، وفي تأويل المصدر.

ولكنْ قد يحدث اشتباهُ باعثُه تداخلُ في معاني الحروف، كأنْ يتردّدَ المرء بين معنيَين أو أكثر، أو قد يُذْهَب إلى أنّ حرفًا ما قد قام مَقام آخر، والأمثلة الآتية تجلّي ما تقدّم:

1- "جئتك بشيءٍ من الذّهَب"

"مِن" في سياقِها محتمِلة معنيين:

- أوّلُهما أنْ تكون تبعيضيّة، وإذا كان ذلك كذلك فالمعنى أنّ القائلَ جاء بنزرٍ يسيرٍ من الذّهبِ، وجاء كلامه هذا إخبارًا بهذا النّزر.
- وثانيهما أنْ تكون بيانًا للجِنس، والمقصِد أنّ القائلَ يرمي إلى إذاعة خاطرٍ عند المتلقّي مؤدّاه أنّه لم يأتِ بالفضّةِ ولا الحديد، بل جاء بالذّهب، فكانت "مِن" في سياقها هذا بيانًا للجِنس الذي جاء به المتكلِّم لا المقدار كما في التّأويل الأوّل.

2- "فُتِن فلانٌ بالمدينة"

قد تعني "الباء" الظّرفيّة، والمعنى قريب من قولنا: جُنّ فلان في المدينة، وقدْ تكون أنّ المدينة كانت سببَ فتنته، ومثل ذلك قوله –تقدّس اسمه-: "فَأَهْلَكْناهُم بِذُنوبِهِم"، أي بسبب.

3- "وَمَن تَطَوّعَ خَيرًا فَإِنَّ اللهَ شاكِرٌ عَليمٌ"

مِن معاني "مَنْ" أنّها شرطيّة، كقولنا: مَنْ يدرسْ ينجحْ، وقد تأتي بمعنى "الذي"، وهي محتمِلةُ المعنَيَين في السّياق الشّريف، فإذا كانتْ شرطيّةً تعيّن أنْ يكون موضع "تطوّع" جزمًا، ومعناه الاستقبالُ، وإذا كانتْ بمعنى "الذي" فالمتعيِّن مِن "تطوّع" المضيّ على بابه. ولا يخفى أنّ التّنغيم قد يعمل على توجيه المعنى.

4- "ذهبنا إلى المنزل إذْ أحمد موجود"

"إذْ" تَتردّد بين معانٍ متنوّعةٍ، ومن ذلك أنّها تأتي ظرفًا، ومنه قوله -تعالى-: "فَقَد نَصَرَه اللهُ إِذْ أَخْرَجَه الذينَ كَفَروا"، وأنّها تأتي للتّعليل، وقد حَمَل ابن هشامٍ معنى "إذْ" في قوله –تعالى-: "وَلَن يَنفَعَكم اليَومَ إِذْ ظَلَمْتُم أَنَّكُم في العَذابِ مُشتَرِكونَ" على هذا المَحْمِل، والمَعنى الكلّيُّ: وَلَن ينفعَكم اليومَ اشتراككم في العذاب لأجلِ ظلمكم في الدّنيا، والملاحَظ أنّ الجملةَ المتقدِّمَ ذكرُها محتمِلة للمعنَيين: معنى التّعليل والظّرفيّة، والباعث على تخلّقِ هذا اللّبس هو أنّها كالمشترَك اللّفظيِّ.

6- أنّى جئت؟

مِن معاني "أنّى" كيفَ، و"من أين"، و"متى"، وقد أُوِّل قوله -تعالى-: "فَأْتوا نِساءَكُمْ أَنّى شِئْتُمْ" على هذه الأوجه المتقدِّمة، وقد اقتصر ابن قتيبةَ على المعنيين الأوّلين قائلاً: "والمعنيان متقاربان يجوز أنْ يُتَأوَّل في كلّ واحد منهما الآخر"، والظّاهر أنّ هذا المشترَك

اللّفظيّ يُفرِز لَبسًا محتمِلاً، فقولنا "أنى جئت"؟ قد يكون المتعيّن منه السؤالَ عن الكيفيّة، أو المكان، أو الزّمان.

9- اشتباهُ الزّمن النّحويّ:

تُقسَم الأفعالُ إلى الماضي والمضارع والأمر، وهي قسمةٌ محتكَمُها الأوّلُ الزّمن، وأوّل ما يظهرُ مِن هذه القسمة العريضةِ أنّها عامّة لا تُحدِّد زمن الفعل إلاّ وهو مُنسلِخ مِن سياقه في الغالب؛ ذلك أنّ السّياقَ هو المُحتكَم الأوّل في تعيينِ زمن الفعلِ، فقولنا "يدرسُ" فعلٌ مضارع، ولكنّه يغدو ماضيًا أو مُستقبِلاً عند دخولِه في سياق بنيويٍّ، ومِن ذلك:

- "لمْ يدرسْ"، والزّمن ههنا المضيّ.
- و"سيدرسُ"، والزّمن ههنا خالصٌ للاستقبال.
- و"غفر الله لك"، والزّمن ههنا للاستقبالِ، فهو دعاء.
- و"قد أقلعت الطّائرة"، والزّمن فيها المضيّ القريبُ.

والذي يبدو مِن زمن الأفعالِ وهي مجرَّدة أنّه موغِل في الإطلاقِ والعموميّة، ومِن ذلك "درس"، فهذا ممتدّ في الزّمنِ الماضي الذي لا يُعلَم له حدّ، وقولُنا "سيدرسُ" ممتدّ في الاستقبالِ إلى أجلٍ غير معلوم، ولذا يستعينُ المرسِل لضبطِ الزّمن وِفاقًا لمرادِه بأساليبَ متنوِّعة، ومِن ذلك الظّرف: "سيدرس بعدَ ساعة"، و"درس قبل يومَين".

لننظرْ في الفعلِ الماضي، وهو للمضيّ في الغالبِ، وقد ينصرفُ إلى الحال؛ وذلك إذا قُصِد به الإنشاءُ، ومِنه "بِعْتُ"، و"اشتريتُ"، و"زوّجتُك ابنتي"، وغير ذلك مِن ألفاظ العقودِ؛ "إذ هو عبارة عن إيقاعِ معنًى بلفظٍ يقارنه في الوجود"، وقد ينصرفُ إلى الاستقبالِ؛ وذلك نحو: "إنّا أعْطَيْناكَ الكَوثَرَ"، والمرادُ بهذا الوعدُ، وقد ينصرف إلى الاستقبالِ إذا اقتضى طلبًا؛ وذلك نحو: لا تلعبْ، أو عُطِف على ما عُلِم استقبالُه، ومِنه: "وَيَومَ يُنفَخُ في الصّورِ فَفَزِعَ".

ولكنْ، قد يحدث اشتباهُ في تعيينِ زمن الفعلِ في سياقِه البنيويّ، ومِن المواضعِ الملتبِسة أنّه يحتمل المضيّ والاستقبالَ إذا وقع بعد همزة التّسوية، ومِن ذلك:

1 – "سَواءٌ عَليّ أقُمتَ أم قعدتَ"

فقد يُحتمَل أنْ يكون المتعيّن مِن هذا التّركيبِ ما كان منك قيامٌ أو قعود، أو ما يكونُ مِنك مِن ذلك، والحقّ أنّه موضعٌ ملبِس لتردّد الفعل بين الزّمنَين، ولكنّه ليس كذلك إذا اقترن الفعلُ بـ"لم"؛ لأنّ "لم" مع المضارع تردّه إلى المضيّ كما تقدّم، ومِن ذلك: "سواء عليّ أأنذرتهم أم لم تنذرْهم"، وههنا يظهرُ فضل السّياقِ البنيويّ في تعيينِ زمن الفعلِ، فقولُه: "لم تنذرْهم" معناه المضيّ، فوجب مضيّ الأوّل لأنّه معادلٌ له.

ويتردّد الفعلُ بين الزّمنَين بعد "كلّما". لننظرْ فيما يأتي:

1- كلّما لعبتُم خسرتُم.

2- "كُلّما نَضِجَتْ جُلودُهُم بَدّلناهُمْ".

يظهرُ مِن الجملة الأولى أنّ دِلالةَ الفعل "لعبتُم" في هذا السّياقِ تتردّد بين المضيّ والاستقبالِ، فقد يكون المعنى أنّكم تلعبون دائمًا فتخسرون، وقدْ يكونُ المعنى المضيّ؛ أي أنّكم كلّما لعبتُم(مِن قبل) خسرتم.

أمّا قوله –تعالى- فهو لا يحتمِل إلاّ زمنًا واحدًا، وهو الاستقبالُ.

ويتردّد الفعلُ بين الزّمنَين بعد "حيثُ"، ومِن ذلك:

1- "وَمِنْ حَيثُ خَرَجتَ فَولِّ وَجْهَكَ"

2- "فَأتوهُنّ مِنْ حَيثُ أمَرَكُم اللهُ"

3- لا يَضيرُني مِنْ حَيثُ أتى الخَطرُ.

يظهرُ مِن سياق الآيةِ الكريمة أنّ الفعل للاستقبالِ، والدالّ على هذا قولُه: فولّ، والمعنى: ومِن حيث تخرج. أمّا في الآيةِ الكريمة الثّانية فالفعلُ خالصٌ للمضيّ. أمّا الجملة الثّالثة فهي محتمِلة؛ ذلك أنّ "يَضيرني" ترشِّح الفعلَ "أتى" للاستقبالِ، والتّقدير: لا يَضيرني مِن حيثُ يأتي، وقد يَخْلُص الفعلُ للمضيّ، ويبقى المعنى على ظاهر لفظِه، ولعلّ للمقاميّات والأبعادِ الخارجيّة يدًا في تعيينِ أحدِ الزّمنَين، وقد يتعذّر ذلك في مواضعَ.

وقدْ يتردّد الفعلُ بين الزّمنَين مع "إنْ" الشّرطيّة؛ ذلك أنّها تقلبُ معناه إلى المستقبَلِ في الغالب، ومِن ذلك: "إنْ كنتَ عازمًا على قتالِه فأنتَ خاسر"، ويظهرُ مِن هذا السّياق البنيويّ أنّ الفعلَ "كنت" يحتملُ أنْ يكون خالصًا للمضيّ، والمعنى أنّك كنت قد عزمتَ على قتالِه "في الماضي"، وقد يكونُ للاستقبال، والمعنى أنّك إذا عزمتَ على قتالِه، وأردت ذلك فإنّك ستخسر، وممّا يُحمَل على وجهٍ واحدٍ، وهو الاستقبال، قوله –تقدّستْ صفاته-: "وَإنْ كُنتُم جُنُبًا فَاطَّهّروا".

وقد يتردّد الفعلُ بين الزّمنَين مع "لَو"، وهي شرطٌ للماضي غالبًا، ولكنّها قدْ تَرِد للمستقبَل ولا تجزم، ولا يخفى أنّ هذا التردّدَ بين الزّمنَين مَجْلَبةٌ للّبس، ومِن ذلك:

"لو أنّك استقبلتني لرحّبت بك"

والتّداخل بين أسلوبي الدّعاء والإخبارِ يعملُ على اشتباهِ زمنِ الفعل، وذلك نحو قولنا:

"قال رجل وفّقه الله إنّ سريًا سيأتي اليومَ"

فقد تكونُ جملة "وفّقه الله" في محلّ رفعِ صفةٍ لـ"رجل"، والفعل على هذا الوجهِ ماض، وقد تكون دعائيّةً، والفعل للطّلب والإنشاءِ، وهو دالّ على الاستقبالِ، ولعلّ للتّنغيم فضلاً في ترشيحِ أحد هذين المعنيين.

10- طولُ الجملة:

تُقرّر الدّراساتُ اللّغويّة النّفسيّة أنّه إذا ما وُجِدت جملتان متساويتان في عواملَ متنوّعةٍ إلاّ في الطّول، فإنّ الجملةَ الطّويلة أصعبُ مِن الأخرى؛ إذْ إنّها تُثْقِل الحافظةَ فيما تبثّه مِن مَقولات وأفكارٍ، وقدْ تتساوى جملتان طولاً، وتختلفان في عددِ المَقولات التي تحتويها

كلٌّ مِنهما، وفي هذه الحالِ تكون الجملةُ التي تشتمل على مَقولاتٍ مكثَّفةٍ عسيرةً على القارئ، وقدْ ينضاف إلى ما تقدّم ملحظُ التّعقيد؛ تعقيدِ التّركيب، وتداخلِ العلاقات السّياقيّة التّركيبيّة ، ومِن ذلك ما ساقه المبرّدُ في باب "مسائل طوال يُمتحَن بها المتعلّمون": الضّارب الشاتمَ المكرمَ المعطيَه درهمًا القائم في داره أخوك سوطًا أكرمَ الآكلُ طعامَه غلامه زيد عمرًا بكرًا عبدَ الله أخوك".

ويظهر ممّا تقدّم أنّها جملة معقَّدة متشابِكة في علاقاتِها البنيويّةِ، وأنّها جملة طويلةٌ ثانيًا، فهي ممّا يَعتاص ولا يكاد يُفهَم، وأحسب أنّ شرحَها ممّا يستغلق؛ ذلك أنّها مكثَّفة بالمَقولات المتداخلةِ، ولعلّ هذا الضّربَ مِن التّأليف المعتاصِ لا يتجلّى إلاّ عند مَن أراد معاياةً وامتحانًا. وفي "الأشباه والنّظائر" مثالٌ آخرُ قريبٌ يبلغ وجوهَ إعرابِه أكثر مِن ألفي ألف وجه، والذي ينبغي التّنبيه عليه في هذين الموضعَين أنّ مَلحظَي التّعقيدِ والطّول يتضافران معًا لبثّ الإلباسِ والتّعمية.

وممّا ورد عليّ في هذا المِضمار –أعني طولَ الجملة– أنّنا كنّا في قاعةِ الدّرس نقرأ بُرْدة كعب بن زهيرٍ، وقد طلب الأستاذ إلى أحدِنا أنْ يشرح قولَه:

كَأنَّ أوْبَ ذِراعَيْها وَقدْ عَرِقَتْ وَقَدْ تَلفّعَ بِالقورِ العَساقيلُ

فاستغلق المعنى على الطالبِ؛ إذ إنّه لم يهتدِ إلى خبر "كأنّ"، فالتفت الأستاذُ إلى ثانٍ وثالثٍ ورابعٍ، وشرع جميع مَن في الحضرةِ ينقبِّون عن خبر "كأنّ"، ولم نهتدِ إليه إلاّ لمّا تجاوزنا حدودَ البيت الأوّلِ والثّاني والثّالث والرّابع؛ إذْ إنّه قارّ فيه، والحقّ أنّ ذلك التّجاوزَ لم يكنْ لنا إلاّ باسترفاد المَعونةِ والرّشد مِن الأستاذ ذاك، والأبيات هي:

كَأنّ أوبَ ذراعَيْها وقدْ عَرقَتْ وقدْ تَلفّع بِالقورِ العَساقيلُ

يَومًا يَظلُّ بِها الحِرباءُ مُنتصِبًا كأنَّ حاجِبَه بِالشّمسِ مَمْلولُ

وَقالَ للقَومِ حاديهم وقَد جَعَلتْ وُرقُ الجَنادبِ يَركضنَ الحَصى: قيلوا

شَدَّ النّهارِ ذِراعا عَيْطَلٍ نَصَف قامتْ فَجاوبَها نُكْدٌ مَثاكيلُ

ولا يخفى أنّ هذا مثالٌ مُبين عن "الغموض" الآتي مِن طولِ الجملة، فأنْ يفصلَ بين "كان" وخبرِها أربعةُ أبيات مَجْلَبةٌ للغموضِ وانتفاءِ الوقوف على المتعيِّن، ولا يُنسى تداخلُ العلاقات السّياقيّة البنيويّة بين هذين المتباعدَين.

ومِن الأمثلة الدّالّةِ على أثرِ الطّول في بعثِ الاحتمال واللّبسِ سورة "الجنّ" في التّنزيل العزيز، وقد قال عنها ابن قتيبةَ: "في هذه السورةِ إشكالٌ وغموض ممّا وقع فيها مِن تَكرار "إنّ" واختلاف القرّاء في نصبِها وكسرها واشتباهِ ما فيها مِن قولِ الله وقولِ الجنّ، فاحتَجْنا إلى تأويلِ السّورة كلّها".

إذنْ، يظهر أنّ ثَمّ قولَين: قولاً لله العظيمِ، وقولاً للجنّ، وقد يحدث اشتباهٌ بين القولَين لِما فيهما مِن تداخل، ولِما يظهرُ مِن طولٍ سياقيّ شريفٍ، ومِن ذلك قولُه -تعالى-: "وَأَنّه كانَ رِجالٌ مِن الإنسِ يَعوذونَ بِرِجالٍ مِنَ الجِنّ فَزادوهم رَهَقًا"، فقد يجوز أنْ تُنصَب "أنّه" لِتُرَدّ إلى قولِه: "قُل أوحِيَ إلىَّ أنّه استمع"، والمعنى: "وأنّه أوحِي إليّ أنّه كان رجال مِن الإنسِ"، ويجوزُ كسرُها لتكونَ مبتدأةً مِن الله سبحانه.